مُقَدِمة النَّاشِر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد:

فقد كُنْتُ ذكرتُ في تقديمي لكتاب العلاّمة «محمود محمد شاكر» «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» أَنَّ لآلِ شاكرٍ دَيْناً في عنق أهل الأدب واللغة، وأهل التفسير والحديث وأهل التاريخ والتراجم والأعلام.

ويسعدني جدّاً أن يكون بين صفوف الإخوة العاملين في المؤسسة من يُعَبّر عن صدق مشاعرنا واحترامنا وتقديرنا لأهل العلم «فالعلماء ورثة الأنبياء».

ويأتي نَشْرُنا لهذا الكتاب تعبيراً حقيقياً عن شعورنا تجاه هذه الأُسرة الكريمة، وتجاه «أعلام الأمة المعاصرين» الذين أفردنا لهم هذه السلسلة ضمن منشورات المؤسسة.

إنني أهدي هذا المُؤَلَّف لهذا العَلَم الكبير الذي ظلَّ رمزاً من رموز الأَصالة والتمسك بالهوية العربية الإسلامية في وجه تيارات التغريب. عسى ولعل أَن يقبل هذا الجهد المتواضع، فأملي كبير أن نُوفيه بعض حقه، فنكون بذلك قد ساهمنا ولو بِجُهْدِ المقل في احترام علمائنا والله المستعان.

رضوان دعبول

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم
ربِّ يَسِّـر وأَعِـنْ

هذه كلمةٌ مُقْتَضَبَةٌ كتبتُها مُعَرِّفاً بالمفكِّر الفَذِّ محمود محمد شاكر، أَحدِ أَركان الثقافة العربية الإِسلامية في العصر الحديث، والناقِد الذي أَفْنى عُمُرَهُ في الذِّياد عن حياضِ هذه الثقافة، والعالِمِ الذي ما تراخَتْ له قَبْضَةٌ عن جَمْرِ هذا الكيان الثقافي العتيق. كتبتُها من خلال التوقُّفِ عند سيرته، والتفقُّهِ في منهجه، والإِحاطةِ بمُجْملِ موقفه من مُعْضِلَةِ التفكير والتفسيرِ التي دُهِيَتْ بها الشخصية العربيةُ المُسْلمةُ في العصر الحديث. ومن ههنا يمكن الكتابةُ عن شاكرٍ في إِطارِ أَعلام الفكر الإِسلاميِّ المُعاصِر الذين اجتهدوا في قراءة الواقع وتفسيرِهِ من خلال أَدواتٍ نابعةٍ من صميم الثقافةِ العربية الإِسلامية، بحيث نتجاوَزُ إِطارَ الإِسهامِ الفكريِّ السياسيِّ الذي يكون منبثقاً في أَغلب الأَحيانِ من أُطُرٍ تنظيميةٍ حركية.

حين صحَّت عزيمتي على دراسة شخصية شاكر والكشفِ عن منهجه في القراءةِ والتفسير والنقد كان الإِطار الذي وضعته لذلك هو: «محمود محمد شاكر الناقد» الأَمر الذي يقتضي التوقُّفَ

عند أَغلب إنجازاته في النقد وقراءة التراث ونَشْرِه، وصراعه الفكري مع التيارات المعاصرة. وحين توغَّلتُ في ارتياد الآفاق المعرفية لشاكر وحاولتُ نَقْدَها والإبانةَ عنها، وَجَدْتُ نفسي أَمام ناقدٍ بعيدِ الغَوْرِ، واسعِ الآفاق، تَتَّسِمُ كتابتُه بالجَدَلِ والاعتراضِ، والإشارات الكثيرةِ إلى الظواهر، والدفاعِ المُسْتَبْسِلِ عن كيانٍ ثقافيٍّ متكاملٍ هو الثقافة العربيةُ الإسلاميةُ. فكان أَنَّ عَدَلْتُ عن الخُطَّةِ السابقةِ، وأَجْمَعْتُ أَمري على الكَشْفِ عن منهج شاكرٍ من خلالِ موقفه من قضية الشعرِ الجاهليِّ بُغْيَةَ توفير أَكبر قَدْرٍ ممكن من التركيز والتحليل في الدراسة، مُحاولاً التيقُّظَ لحقِّ العلْم والدرس الأَدبيِّ المُنْصفِ الذي يُحاولُ أَن يقولَ ما لشاكرٍ وما عَليه.

لقد كانت قضية الشعر الجاهلي إحدى القضايا الكبرى المؤثرة في بنية الثقافة العربية المعاصرة وقد أثارت جدلاً واسعاً بعد طروحات د. طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي» عام ١٩٢٦. وكانت سبباً في وجود غير قليلٍ من الدراسات التي تصدَّت مباشرة لنقد مظاهر الخلل والزيف في تلك الطروحات. ويبدو أن شاكراً أدرك مبلغ التهافت الذي ركب آراء طه حسين، وأدرك أن وراء الأَكَمَةِ ما وراءها، فقابل ذلك بالإهمال وربما بالازدراء حين رأى هذا النزقَ الفكريَّ الذي أطبق على قضية الشعر الجاهلي، وانحرف بها عن كونها قضية أدبية تعالج بالدراسة والتحليل والنقد، لتصبح دلالة على رؤية تزدري إنجازات الأَسلاف ولا تصبر على سَبْرِ أَغوارها، واستخراج ما

فيها من رِكاز العلم والإبداع.

كان كتابُ ابن سَلاَّم الجُمَحيِّ «طبقات فحول الشعراء» التربةَ التي بذر فيها شاكر البذور الأولى لآرائه المتعلقة بالشعر الجاهلي. ثم اتسع إطار البحث النظري فيما كتبه في «فصل في إعجاز القرآن» الذي قَدَّم به لكتاب «الظاهرة القرآنية» لصديقه مالك بن نَبي سنة ١٩٥٨، ثم كانت دراسته «نمط صعب ونمط مخيف» سنة ١٩٦٩، واحدةً من أَدق إنجازاته النظرية والتطبيقية حول قضية الشعر الجاهلي، وعليها كان الاعتماد في المقام الأول في هذا البحث. وفي سنة ١٩٧٥ ألقى شاكر مجموعة من المُحاضرات في الشعر الجاهلي وغامر المغامرةَ الجريئةَ حين طلب أن يكون أَصلُ الأصولِ في دراسة الأدب والتاريخ معاً هو النظرَ في كتاب الله تعالى باعتباره حادثةً أدبيةً فريدةً في تاريخ البشرية، وتجلِّياً مُذْهِلاً للغة بحسب مفهوم الإعجاز.

ويَهْدِفُ هذا البحثُ إلى دراسة مُجمل الموقف النقدي لمحمود محمد شاكر من الشعر الجاهلي، وذلك بفحص أُصوله النظرية ودراسة جهوده التطبيقية في هذا المجال، والكشف عن مفهوم المنهج وضوابطه ومحدِّداته، ومدى سيطرة شاكر على مقولاته النظرية في المعالجة التطبيقية، وذلك ضمن إطارٍ تاريخي يحاول تحليلَ الظاهرةِ في سياقها، ويطمح إلى وَصْفِ قراءةِ شاكر ونقدِها من خلال علاقاتها مع القراءات الأخرى التي يكاد يَجْمَعُها الخروجُ على الطرائقِ النقديةِ الموروثةِ ولا سيما بعد انعطافها نحو البلاغة وقواعدها.

وكان لقلة الدراساتِ النقدية حول شاكر أَثَرٌ حقيقي في مبلغ الصعوبة التي واجهتني في كتابة هذا البحث الذي شَرَعْتُ فيه مُجرَّدا من العون النقدي. وكان لدراسة د. إحسان عباس «القوس العذراء» التي كَرَّم بها أُستاذَه شاكراً بمناسبة بلوغه السبعين فَضْلٌ سابغٌ على هذا البحث، وذلك بما حَفَلَتْ به من القِيَم النقدية الرَّصينة التي ثَبَّتَتْ قلبي وَمَنَحتني قدراً من التوازن تخلَّصْتُ به من نَشْوةِ الإعجاب العاطفي بشاكر، وأعانتني على تنظيم أفكاري حول دِقَّة إنجازات شاكر وكبير محلِّه في العلم. ولقد كانت خسارة البحث كبيرة حين لم أُفِدْ إلا في الذَّماء الأخير مما كتبه العلاّمةُ إحسان عباس في سيرته الذاتية «غربة الراعي» حين قال: «لقد تعلمت من محمود، وغرفْتُ من علمه الغزير أَضعافَ ما قرأتُه وسمعتُه قبل لقائه.. وكان لقائي به فاتحةَ عَهْدٍ جديد في حياتي العلمية، والمِيزةُ الكبرى فيه أَنَّه ذو رأي عميقٍ واطلاعٍ واسع، وليس هنالك من هو أَقدرُ منه على فَضْحِ التفسيرات الّتي تُزَيِّفُ التاريخ والحقائق.. وكان محمود ولا يَزال يعتمد فَهْمَ الأَسبابِ ويُحسن رَبْطَ النتائجِ بها على نحو دقيقٍ مُتَفَرِّدٍ لم أجِدْهُ عند غيره». أما ما كتبه د. زكي نجيب محمود في مقالته «القوس العذراء» فهو تبجيل خالص يخلو من روح النقد، وأجود منه ما كتبه د. محمد مصطفى هدَّاره في «القوس العذراء: رؤية في الإبداع الفني»، وأما دراسة د.عبدالعزيز الدسوقي «المتنبي بين محمود شاكر وطه حسين» فهي دراسة مضطربة ابتدأها الدسوقي مُسَبِّحاً بحَمْدِ شاكر وختمها

بما لفت إليه نَظَرَ القُرَّاءِ الذين لحظَ أحدهم أَنَّ الدراسة لا تَجْري على سَنَنِ النقد وضوابطه. ولم أَطَّلع إلاّ في مرحلةٍ متأخرة جدّاً على دراسة الأُستاذ محمود الرضواني: «أبو فهر محمود محمد شاكر بين الدرس الأدبي والتحقيق».

يتألف هذا البحث من أربعة فصول وخاتمة. وقفت في الفصل الأول عند معالم الشخصية ومسيرة الحياة لمحمود شاكر. وكنت حريصاً على رصد أكثر اللحظات دلالة على تكوينه العقلي وطبيعة تفكيره ضمن سياقٍ متكامل تُفْضي فيه الأَسباب إلى نتائجها. وحاولت تَتَبُّعَ إنجازاتِه العلمية في النقد والإبداع وقراءة التراث ونشره.

ودرست في الفصل الثاني «مفهوم المنهج وأصوله النظرية»، وأَشَرْتُ إلى الظروف التاريخية التي برزت فيها مشكلة المنهج ومُعْضِلَةُ تفسير النص. وأَنَّ مفهوم المنهج عند شاكر مرتبطٌ بمحدِّدات وضوابطَ لم يلتفت إليها غيره أَدْنى التفات.

أما الفصل الثالث (تطبيق الأصول) فقد تتبعتُ فيه بإيجاز شديد تَجَلِّياتِ الأُصول النظرية عند شاكر واكتمالَها في دراسته للشعر الجاهلي وذلك من خلال الوقوف عند حدود فقه اللغة (الفيلولوجيا) باعتبارها عملاً تمهيدياً يسبقُ ذُرْوَةَ الفعالية النقدية: التفسير والحكم.

وفي الفصل الرابع «مداخل النص». حاولت الدلالة على المداخل الأَساسية التي قرأ بها شاكرٌ النصَّ واستنبط بوَساطِتها القِيَمَ الجماليةَ والأَخلاقيةَ التي أُودِعَتْ فيه.

وإذا كان الأَخفش قد قضى وفي نفسه شيءٌ من «حتّى»، فقد أَلقيتُ القَلَمَ وفي نفسي أَشياءُ من هذا البحثِ لم أَنْقَعْ منها الغُلَّةَ. ولعل صديقي الباحثَ الدؤوبَ إبراهيم الكوفحي يُطيق كتابة بحث يستدرك به أوجه القصور في أطروحته للدكتوراه «محمود محمد شاكر الأَديب الناقد» التي سَجَّلها في الجامعة الأردنية تحت إِشرافِ الأُستاذ الدكتور إِبراهيم السعافين.

هذا، ولقد كان أَصلُ هذا الكتاب بحثاً علمياً تقدَّمْتُ به لنيل الدرجة الجامعية الثانية «الماجستير» في قسم اللغة العربية في جامعة اليرموك / إربد/ بتاريخ ١١/ ربيع الأول/ ١٤١٧هـ الموافق لـ٢٧/ ٧/ ١٩٩٦م، ولقد كان لأستاذي المشرف الدكتور خليل أبو رحمة يَدٌ لا تُكْفَرُ على هذا البحث الذي قرأه قِراءةً فاحصةً دقيقة أَنْبَهَني بها على جُمْلةِ أخطاءٍ كان بَقاؤها سَيشينُ وجه البحث. ولن أنسى إخاءه الكريمَ وإِفساحَه المجالَ أَمامي للتعبير عن قَناعاتي كما أَنتهيتُ حتى لو كانت مُخالفةً لوجهة نظرِه في المسألة.

وأيضاً، فقد حَظِيَ هذا البحث برضا كبير نُقَّادِ الأَدب العربي الأُستاذ العلاّمة الدكتور إِحسان عباس: أَنْفَذِ العُلماءِ بصيرةً في قيمةِ إِنجازات شاكر، والصديق الذي ظلَّ وفيّاً لشاكر رغم تَسَنُّمِه ذُرى المجد الأدبيِّ. فقد ناقش الباحث بروحٍ نقديةٍ دقيقةٍ أَفادت الباحثَ والجمهور المُثَقَّفَ حين جعل يكشفُ عن مواطن الإِجادةِ والزَّلل،ويقصُّ طرفاً ماتِعاً من علاقته بشاكرٍ ممَّا يُفيدُ البَحْثَ ويُثْريه، وحريٌّ به أَن يَفْعَلَ ذلك، فهو عالِمٌ رَكينٌ

حريصٌ على إفادةِ الباحثين والأَخْذِ بأَيديهم إلى جَوادِّ الصواب، فله أعظمُ الشكر وأَنْبَلُ الاحترامِ على قراءته الدقيقة للبحثِ، وإفادته إيَّايَ بغير قليلٍ من فوائده المتتابعة. كما أَتقدَّمُ بوافر التقدير من الأستاذ الدكتور يوسف بكَّار عضو لجنة المناقشة على ما أَبداه من ملحوظاتٍ نقدية قَيِّمة.

أَشكر جميع أَساتذتي وأَصدقائي الذين أَفَدْتُ من محاوراتهم ومكتباتِهم. وأَخُصُّ بالشكرِ الشيخ المحدث شعيب الأَرنؤوط والدكتور خليل الشيخ والصديق إبراهيم الكوفحي.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

عُمر حَسن القيَّام

الأردن - إربد

٤ ربيع الثاني/ ١٤١٧هـ

١٩/٨/١٩٩٦